

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ومن عكس انعكس ولهذا قال تعالى { هن أم الكتاب } أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه { وأخر متشابهات } أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس Bهما : المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به وعن ابن عباس أيضاً أنه قال المحكمات قوله تعالى : { قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً } والآيات بعدها وقوله تعالى : { وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه } إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به قال : حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر و أبا فاختة تراجعا في هذه الآية وهي { هن أم الكتاب وأخر متشابهات } فقال أبو فاختة : فواتح السور وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير : هن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان وعن مجاهد المتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله { كتاباً متشابهاً مثاني } هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك وأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار C حيث قال منه آيات محكمات فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريح عما وضعن عليه قال : والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريح وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ويحرفن عن الحق .

ولهذا قال تعالى { فأما الذين في قلوبهم زيغ } أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل { فيتبعون ما تشابه منه } أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى

مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال ﷺ : { ابتغاء الفتنة } أي الإضلال لأتباعهم إياها ما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح ﷻ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله { إن هو إلا عبد أنعمنا عليه } وبقوله { إن مثل عيسى عند ﷻ كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون } وغير ذلك من الآيات المحكمة المصراحة بأنه خلق من مخلوقات ﷻ وعبد ورسول من رسل ﷻ .

وقوله تعالى { وابتغاء تأويله } أي تحريفه على ما يريدون وقال مقاتل بن حيان و السدي يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عبد ﷻ بن أبي مليكة عن عائشة B ها قالت : قرأ رسول ﷻ صلى ﷻ عليه وسلّم { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات } إلى قوله { أولو الألباب } فقال : [فإذا رأيت الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى ﷻ فاحذروهم] هكذا وقع الحديث في مسند الإمام أحمد من رواية ابن أبي مليكة عن عائشة B ها ليس بينهما أحد وهكذا رواه ابن ماجه من طريق إسماعيل بن عليّة و عبد الوهاب الثقفي كلاهما عن أيوب به ورواه محمد بن يحيى العبدى في مسنده عن عبد الوهاب الثقفي عن أيوب به وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب وكذا رواه غير واحد عن أيوب وقد رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أيوب به ورواه أبو بكر بن المنذر في تفسيره من طريقين عن النعمان بن محمد بن الفضل السدوسي ولقبه عارم : حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وتابع أيوب أبو عامر الخراز وغيره عن ابن أبي مليكة فرواه الترمذي عن بNDAR عن أبي داود الطيالسي عن أبي عامر الخراز فذكره وهكذا رواه سعيد بن منصور في سننه عن حماد بن يحيى الأبح عن عبد ﷻ بن أبي مليكة عن عائشة ورواه ابن جرير من حديث روح بن القاسم و نافع بن عمر الجمحي كلاهما عن ابن أبي مليكة عن عائشة به وقال نافع في روايته عن ابن أبي مليكة : حدثني عائشة فذكره وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية و مسلم في كتاب القدر من صحيحه و أبو داود في السنة من سننه ثلاثهم عن القعنبى عن يزيد بن إبراهيم التستري عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة B ها قالت : تلا رسول ﷻ صلى ﷻ عليه وسلّم هذه الآية : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات } إلى قوله : { وما يذكر إلا أولو الألباب } قالت : قال رسول ﷻ صلى ﷻ عليه وسلّم [فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى ﷻ فاحذروهم] لفظ البخاري وكذا رواه الترمذي أيضا عن بNDAR عن أبي داود الطيالسي عن يزيد بن إبراهيم به وقال : حسن صحيح وذكر أن يزيد بن إبراهيم التستري تفرد بذكر القاسم في هذا الإسناد وقد رواه غير واحد عن

ابن أبي مليكة عن عائشة ولم يذكر القاسم كذا قال وقد رواه ابن أبي حاتم فقال : حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد الطيالسي حدثنا يزيد بن إبراهيم التستري و حماد بن سلمة عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة B ها قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه } فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم] وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن حماد بن سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة B ها قالت : نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية : { يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة } فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [قد حذرکم الله فإذا رأيتموهم فاعرفوهم] ورواه ابن مردويه من طريق أخرى عن القاسم عن عائشة به وقال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد عن أبي غالب قال : سمعت أبا أمامة يحدث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه } قال [هم الخوارج] وفي قوله تعالى : { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } قال [هم الخوارج] وقد رواه ابن مردويه من غير وجه عن أبي غالب عن أبي أمامة مرفوعا فذكره وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ففاجؤوه بهذه المقالة فقال قائلهم وهو ذوالخويصرة - بقر الله خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم [لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل أيا مني على أهل الأرض ولا تأمنوني] فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله فقال [دعه فانه يخرج من ضئضء هذا أي من جنسه قوم يحقر أحكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم] ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب B ه وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم نبعت القدريّة ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم في قوله [وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة] قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي [أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا المعتمر عن أبيه عن قتادة عن الحسن بن جندب بن عبد الله أنه بلغه عن حذيفة أو سمعه منه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر [إن في أمتي قوما يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتأولونه

على غير تأويله [لم يخرجوه .

وقوله تعالى { وما يعلم تأويله إلا الله } اختلف القراء في الوقف ههنا ف قيل : على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس ه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يعذر أحد في فهمه وتفسير تعرفه العرب من لغاتها وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا الله ويروى هذا القول عن عائشة و عروة و أبي الشعثاء و أبي نهيك وغيرهم وقد قال الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير : حدثنا هاشم بن مزيد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يبتغي تأويله { وما يعلم تأويله إلا الله } والراسخون في العلم يقولون آمنا به { الآية وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه] غريب جدا وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أحمد بن عمرو حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به] وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ : وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز و مالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود : إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به وكذا عن أبي بن كعب واختار ابن جرير هذا القول .

ومنها من يقف على قوله : { والراسخون في العلم } وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول وقالوا : الخطاب بما لا يفهم بعيد وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به وكذا قال الربيع بن أنس وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر الزبير : { وما يعلم تأويله } الذي أراد ما أراد { إلا الله } والراسخون في العلم يقولون آمنا به { ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضا فنفذت الحجة وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل] ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله تعالى : { وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل } وقوله { هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله } أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فإن أريد بالتأويل هذا

فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا D ويكون قوله { والراسخون في العلم } مبتدأ و { يقولون آمنا به } خبره وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله { نبئنا بتأويله } أي بتفسيره فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على { والراسخون في العلم } لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه وعلى هذا يكون قوله : { يقولون آمنا به } حالا منهم وساغ هذا وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله { للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم } إلى قوله { يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا } الآية وقوله تعالى : { وجاء ربك والملك صفا صفا } أي وجاءت الملائكة صفوفا صفوفا .

وقوله إخبارا عنهم { يقولون : آمنا به } أي المتشابه { كل من عند ربنا } أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند A وليس شيء من عند A بمختلف ولا متضاد لقوله : { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير A لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } ولهذا قال تعالى : { وما يذكر إلا أولو الألباب } أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا فياض الرقي حدثنا عبد A بن يزيد وكان قد أدرك أصحاب النبي A أنسا وأبا أمامة وأبا الدرداء B هم قال : حدثنا أبو الدرداء أن رسول A سئل عن الراسخين في العلم فقال : [من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن أعف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم] وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول A قوما يتدارؤون فقال [إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب A بعضه ببعض وإنما أنزل كتاب A يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه] وتقدم رواية ابن مردويه لهذا الحديث من طريق هشام بن عمار عن ابن أبي حازم عن أبيه عن عمرو بن شعيب به وقد قال أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا زهير بن حرب حدثنا أنس بن عياض عن أبي حازم عن أبي سلمة قال : لا أعلمه إلا عن أبي هريرة أن رسول A قال [نزل القرآن على سبعة أحرف والمرء في القرآن كفر - قالها ثلاثا - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله] وهذا إسناد صحيح ولكن فيه علة بسبب قول الراوي لا أعلمه إلا عن أبي هريرة وقال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا محمد بن عبد A بن عبد الحكم حدثنا ابن وهب قال : أخبرني نافع بن يزيد قال : يقال : الراسخون في العلم المتواضعون المتذللون في مرضاته لا يتعاطمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم ثم قال تعالى مخبرا أنهم دعوا ربهم قائلين { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ

هديتنا { أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتمنا عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبغون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم } وهب لنا من لدنك { أي من عندك } رحمة { تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماننا وإيقاننا { إنك أنت الوهاب } .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال جميعا : حدثنا وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن النبي A كان يقول [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك] ثم قرأ { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب } ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن بكار عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة وهي أسماء بنت يزيد بن السكن سمعها تحدث : إن رسول الله A كان يكثر من دعائه [اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت قلت : يا رسول الله وإن القلب ليتقلب ؟ قال : نعم ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا قلبه بين أصبعين من أصابع الله D فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه] فنسأل الله ربنا أن لا يزغ قلوبنا بعد إذ هدانا ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب - وهكذا رواه ابن جرير من حديث أسد بن موسى عن عبد الحميد بن بهرام به مثله رواه أيضا عن المثنى عن الحجاج بن منهال عن عبد الحميد بن بهرام به مثله وزاد : [قلت يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : بلى قلبي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن] ثم قال ابن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد بن هارون بن بكار الدمشقي حدثنا العباس بن الوليد الخلال أخبرنا يزيد بن يحيى بن عبيد الله أخبرنا سعيد بن بشير عن قتادة عن حسان الأعرج عن عائشة B قالت : كان رسول الله A كثيرا ما يدعو [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيعه أزاعه أما تسمعين قوله { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب }] غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة وقد رواه أبو داود والنسائي وابن مردويه من حديث أبي عبد الرحمن المقرئ زاد النسائي وابن حبان وعبد الله بن وهب كلاهما عن سعيد بن أبي أيوب : حدثني عبد الله بن الوليد التجيبي عن سعيد بن المسيب عن عائشة B أنها أن رسول الله A كان إذا استقيظ من الليل قال [لا إله إلا أنت سبحانك اللهم إني أستغفرك لذنبي وأسألك رحمة اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب] لفظ ابن مردويه وقال عبد الرزاق عن مالك عن أبي عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن عبادة بن نسي أنه أخبره أنه سمع قيس بن الحارث يقول : أخبرني أبو عبد الله

الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق B المغرب فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل وقرأ في الركعة الثالثة قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية : { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا } الآية قال أبو عبيد : وأخبرني عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد الله ؟ قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك فقال له رجل : على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك قال : كنت أقرأ { قل هو الله } وقد روى هذا الأثر الوليد بن مسلم عن مالك والأوزاعي كلاهما عن أبي عبيد به وروى هذا الأثر الوليد أيضا عن ابن جابر عن يحيى بن يحيى الغساني عن محمود بن لبيد عن الصنابحي أنه صلى خلف أبي بكر المغرب فقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة قصيرة يجهر بالقراءة فلما قام إلى الثالثة ابتدأ القراءة فدنوت منه حتى إن ثيابي لتمس ثيابه فقرأ هذه الآية { ربنا لا تزغ قلوبنا } الآية .

وقوله { ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه } أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزئ كلا بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر